

الكتاب المصري



أكتوبر ١٩٤٦

ذو القعدة ١٣٦٥

مجلة ٤ - عدد ١٣

السنة الثانية

من أبطال الأساطير اليونانية^(١)

أوديب - نيسوس

كان لاويوس Laius منذ ارتقى إلى عرش ثيبا يحيا حياة سعيدة راضية مع زوجته جوكاست Jocaste . ولم يكن يكدّر صفو هذه السعادة إلا شيء واحد وهو أن الزوجين لم يرزقا الولد . فخطر للملك أن يستشير أبولون Apollon في محنته هذه لعله أن يجد له منها مخرجاً ، وأن يتم عليه نعمة الملك السعيد المجيد الذي لا يقتصر على شخص صاحب العرش ، وإنما ينتقل منه إلى ذريته التي تتوارثه أجيالها إلى آخر الدهر . فلم يكن لاويوس قصير الأمل ، ولا محدود الأمد . لم يكن يريد أن يملك ليس غير ، وإنما كان يريد أن ينشئ أسرة مالكة . ولكن أبولون لم يكن سمحاً ، ولا موافقاً ، فأظهر للملك في شيء من الإلغاز ما خبأه له القضاء : أعلن إليه أنه إن رزق الولد فسيفتله ابنه . وقد عاد لاويوس من معبد أبولون مهموماً ، شديد الحزن ، موزع النفس بين الحرص على الحياة والرغبة في الولد الذي يرث الملك ، ويخلد الذكر . وقد شك طويلاً أو قصيراً بين هاتين العاطفتين ، ولكنه آثر الحياة آخر الأمر على الولد ، فرضى العقم بل رغب فيه وحرص عليه . غير أن

(١) مقدمة كتاب أوديب - نيسوس تأليف أندريه جيد ، وترجمة طه حسين . من مطبوعات دار الكتاب المصري يظهر في شهر أكتوبر .

القضاء ماض إلى غايته دائماً ، فما هي إلا أن يرزق لايوس من زوجه جو كاست هذا الغلام الذى أنذره أبولون بأنه سيذيقه الموت . هنالك استأثر الحرص على الحياة بنفس الملك ، فأزمع أن يقتل ابنه قبل أن يقتله هذا الابن ، وأسلم الطفل إلى راع من رعائه ، وكلفه أن يلقيه على الجبل نهياً للسباع . ولكن الراعى لم يكن قاسى القلب ولا غليظ الطبع ، فلم يلق الطفل على الجبل ولم يقتله ، وإنما أسلمه إلى راع آخر الملك كورنت فى بعض الروايات ، أو علقه إلى شجرة من أشجار الجبل من رجليه اللتين شقهما ، وجمع بينهما بحبل متين ومهما يكن من اختلاف الروايات ، فإن الصبي لم يمت نهياً للسباع ، ولا نهياً للجوع والبرد والجراح ، وإنما تلقاه راعى كورنت فعطف عليه ورفق به . وكان ملك كورنت بوليبي Polybe شقيقاً بعقم امرأته ميروب Mérope ، فيدفع الراعى إليه هذا الصبي ويتبناه الملك وينشئه تنشئة أبناء الملوك . وقد شب الصبي قوى الجسم والنفس جميعاً ، ماضى العزم . صارم الإرادة ، معتدا بنفسه ، جاهلاً لأصله ، بعيد الأمل مع هذا كله عظيم الأطماع . ولكنه يرى من لدااته وأترابه ما يريه ، فهم يلمحون له بأنه ليس ابن الملك . وهو يضيق بهذه الريبة ويريد أن يعرف جلية أمره ، فيذهب إلى معبد أبولون ليتبين حقيقة الأمر فى وحى الإله . والقضاء صارم حازم قاس لا يعرف رفقاً ولا ليناً ، وإذا أبولون لا ينبي الفتى بأصله ، ولا يزيل من نفسه الريبة ، وإنما يضيف شكاً إلى شك وخوفاً إلى خوف ، فينبي الفتى بأنه سيقتل أباه ، وسيتزوج من أمه ، وسيقترب هاتين الخطيئتين المنكرتين .

وكان لايوس قد أراد أن يقاوم القضاء فيخلص من هذا الصبي الذى سيذيقه الموت ، فانتصر القضاء على إرادة لايوس ، وعاش الصبي ونما حتى أصبح قادراً على اصطناع السلاح . وهذا الفتى ينبئه أبولون بأنه سيقتل أباه ويقتربن بأمه ، فيريد أن يقاوم القضاء ، وهو لا يعرف لنفسه أباً غير بوليبي ملك كورنت ، ولا أمّاً غير ميروب ملكتها . فليجتنب إذن كورنت ، وليأخذ طريقه إلى أى بلد آخر بعيد عن هذه المدينة حتى لا يُعْرَى بقتل أبيه أو اتخاذ أمه لنفسه زوجاً . وإنه لى بعض الطريق عند مكان شديد الضيق ، وإذا عربة تعترضه وتأخذ عليه سبيله ، فيكون الخصام باللسان ، ثم يكون الاقتتال ، وإذا الفتى يقتل صاحب العربة ، وقد تفرق من كان معه من خدم وأنصار . ويمضى الفتى لوجهه راضياً عن نفسه ، مطمئناً لحسن بلائه ، غير مقدر أنه قد أنقذ بعض ما كتب القضاء

عليه ، فقتل أباه ، واقترب أحد الإيميين اللذين أنذره بهما أبولون . وهو يمضى في طريقه حتى يدنو من مدينة ثيبا ، فيسمع بأن المدينة مروعة بخطر داهم ونكر ميين . فهذا كائن غريب قد هبط عليها من السماء أو نجم لها من الأرض ، جاءها من حيث لا تعلم على كل حال ، واستقر غير بعيد من المدينة على صخرة مرتفعة يرصد من يمر به من الناس ، فيلقى عليهم لغزه الغريب : ما كائن له صوت واحد يمضى على أربع إذا أصبح ، وعلى اثنتين إذا زالت الشمس ، وعلى ثلاث إذا أقبل المساء ؟ وهذا الكائن الغريب الذى اتخذ جسم الأسد ، ورأس المرأة ، ووصل بجسمه جناحين ، والذى يسميه اليونان سفنكس ، ويسميه المصريون القدماء بوالهول ، أو أبا الهول ، لا يعنى أحداً من الإجابة على هذا السؤال وحل هذا اللغز . والناس جميعاً يعجزون عن الإجابة ولا يجدون حلاً لهذا اللغز ، وهو يعاقبهم بالموت على هذا العجز والإخفاق . وقد عظم الكرب ، وعم البلاء ، وامتلات قلوب أهل المدينة خوفاً ورعباً ، حتى اضطر كريون Créon أخو الملكة چوكاست والناهض بأعباء الملك بعد قتل لايوس أن يذيع فى أقطار الأرض أن من أراح المدينة من هذه المحنة فله تاجها وله الملكة زوجاً .

وقد سمع الفتى بأبناء هذا الكائن الخطر ، وبهذا الوعد الرائع الذى يبذل لمن ينفذ منه هذه المدينة البائسة ، وهو قوى الجسم والنفس ، ذكى القلب ، حديد الفؤاد ، بعيد الأمل ، شديد الطموح ، فيقبل على أبى الهول يجرب ذكائه وقوته ، ويغامر بحياته فى سبيل المجد والملك . وأبو الهول يلقى عليه السؤال فيجيبه الفتى بأن الإنسان هو الذى يمضى على أربع إذا أصبح لأنه يحبو فى الطفولة ، ويمضى على اثنتين إذا انتصف النهار لأن قامته تعمدل وتستقيم إذا شب ، ويمضى على ثلاث إذا أقبل المساء لأنه ينحنى على العصا إذا أدركته الشيخوخة ، وقد أغم أبو الهول وألقى بنفسه من أعلى الصخرة فات . وظفر الفتى بعرش ثيبا ، واتخذ الملكة له زوجاً ، واطمان إلى أنه قد أفلت مما تنبأ له به وحى أبولون ، فلم يقتل أباه ، وأين هو من عابر السبيل ذاك الذى قتله ! ولم يقترن بأمه ، وأين هر من ملكة ثيبا هذه التى تزوج منها ! لقد ترك أبويه فى كورنت وأسس لنفسه ملكاً جديداً ، وقد رضى عن رعيته ورضيت عنه رعيته ورزق الولد . فله ابنان اثيوكل Etéocle وپولينيس Polynice ، وله ابنتان أنتيجون Antigone وإسمين Ismène . وهو يرى نفسه سعيداً موفوراً راضى النفس رضى البال .

من أبطال الأساطير اليونانية

ولكن المدينة تمتحن ذات عام بوباء يفسد عليها أمرها كله فساداً عظيماً ؛ فقد هلك الزرع وجف الضرع وأسرف الموت في كل حي ؛ فالطير تساقط من السماء ؛ والحوانات تخر إلى جنوبها ، والناس يستبقون إلى القبور حتى تضيق بهم وحتى يعجز بعضهم عن دفن بعض ، وقد عم البلاء وعظم الكرب واشتدت المحنة حتى بلغت أقصاها . وأهل المدينة يستعطفون الآلهة بالضحايا والقرايين ويتوسلون إليهم بالصلاة والدعاء ، فلا يفي عنهم هذا كله شيئاً . وهم قد هرعوا إلى ملكهم يفزعون إليه ويستعينونه ، فيرسل الملك إلى معبد أبولون من يوامر الإله ويستشيريه في هذا البلاء العظيم . ويعود رسول الملك إليه يحمل جواب الإله واضحاً غامضاً ومعمى صريحاً ، كما تعود أبولون أن يجيب دائماً . أجاب أبولون بأن الآلهة لن يكشفوا الضر عن هذه المدينة إلا إذا نارت للايوس من قاتله ولم يكد الملك يتلقى هذا الجواب حتى أعلن في حزم وصرامة أنه باحث عن هذا القاتل ومترل به أشد العقاب ، وأنه يطلب إلى أهل المدينة أن يعاونوه على ذلك في غير تردد ولا ضعف مهما يكن هذا القاتل . ثم هو لا يكتفى بذلك بل يستزل اللعنات وغضب الآلهة على هذا المجرم الذي قتل ملكاً وعرض المدينة لشرعظيم ولكن الملك لا يكاد يبحث عن هذا المجرم حتى تتبين له الحقيقة منكرة بشعة ، فهو المجرم الذي قتل لايوس هناك في ذلك المكان الضيق . وهو الآثم الذي اتخذ أمه له زوجاً وحاش معها في هذا القصر وأولدها أبناءه الأربعة .

ليس في ذلك شك ، واسمه نفسه يدل على ذلك دلالة قاطعة ، فهو أوديب Oedipe ذو الرجل المتورمة ، ورجله متورمة حقاً من أثر ذلك الثقب الذي علق به إلى الشجرة في طفولته الأولى على الجبل . يعرف ذلك من الراعي الذي كلف قتله ، ويعرف ذلك من الراعي الذي أنقذه من الموت وأسلمه إلى ملك كورنت . هنالك يتبين أوديب وتتبين چوكاست أن لا مرداً لما كتب القضاء . فلم يفن عن لايوس تخلصه من الصبي ، فقد عاش الصبي حتى قتله . ولم يفن عن چوكاست تخلصها من الصبي فقد عاش الصبي حتى اقترن بها . ولم يفن عن أوديب فراره من قصر كورنت وتجنبه ملكها وملكتها هرباً من الآثم ، فلم يكن من هذين الزوجين في شيء . وإنما هو ابن لايوس وقد قتل لايوس ، وابن چوكاست وقد تزوج من چوكاست . والمهم أنه قد عرف القاتل الذي يجب أن يثار منه لتخلص المدينة من هذا البلاء ، فيجب أن يثار من نفسه إذن ، فإن لم يفعل فستثار منه المدينة

من أبطال الأساطير اليونانية

التي لم تكن ترى فيه ملكاً فحسب ، وإنما كانت ترى فيه شيئاً يشبه الإله .
فأما چوكاست فلم تكذب تظهر على الحقيقة البشعة حتى خنقت نفسها . وأما
أوديب ففقاً عينيه بيديه حتى لا يرى الضوء .

وتختلف الروايات بعد ذلك أو قل تختلف الروايات قبل ذلك ، ويزيد في
اختلافها فن شعراء الممثلين الذين اتخذوا هذه القصة موضوعاً للتمثيل ؛ فقوم
يرون أن چوكاست لم تقتل نفسها ، وإنما عاشت حتى رأت اختلاف ابنها على
العرش وتساقبها الموت ، ولم تقتل نفسها إلا بعد أن رأتهما صريعين . وقوم
يرون أن أوديب قد نفى نفسه من الأرض بعد أن فقاً عينيه وهام غريباً
تقوده ابنته أنتيجون حتى انتهى آخر الأمر إلى ضاحية من ضواحي أثينا
فمات فيها . وآخرون يرون أنه لم ينف نفسه ، وإنما تفاه ابنه بعد أن وليا الملك .
وآخرون يرون أن ابنه قد امسكاه في القصر ولم ينفياه ، وإنما تفاه كريون بعد
أن مات ابنه ، فلجأ إلى الضاحية الأثينية ومات فيها .

هذه هي القصة التي روتها الأساطير اليونانية منذ أبعد العصور ؛ فقد
تحدثت بها الأوديسة في نشيدها الحادى عشر ، كما تحدثت بها أقاصيص نيبا
نفسها بعد ذلك .

٢

والشعراء الممثلون من اليونان يعتمدون في تمثيلهم بحكم الفن نفسه وبحكم
الدين أيضاً على الأساطير . فالأبطال القدماء هم موضوع المأساة اليونانية التي
تصور لحياتهم أو تصور ما تمتاز به حياتهم من المحن والخطوب . وتصور هذه
المحن التي ألمت بالأبطال وعرضها على النظارة في ملاعب التمثيل شئاً كان الأثينيون
يروونه فنساً ويروونه ديناً . فيه الجمال الأدبي الذي يعظ النفس ويذكر القلب
ويثير العاطفة وينمى الفضيلة ويرفع الإنسان عن صفائر الحياة إلى جلائل
الأمور ، وفيه تقديس الآلهة وتمجيد الأبطال والإشادة بالتقديم وما فيه من
مآثر كتب لها الخلود . وقد كان اليونان قبل أن ينشأ فن التمثيل وقبل أن
ينشأ فن الغناء نفسه يتقربون إلى آلهتهم بإنشاد الشعر القصصى والاستماع له .
ثم نشأ الغناء فتقربوا به إلى الآلهة ، يتغنون حياة الأبطال وحياة الآلهة وما
عرض لهم فيها من خير وشر . ثم نشأ فن التمثيل فتقربوا به إلى الآلهة كما كانوا

من أبطال الأساطير اليونانية

يتقربون بالقصص والغناء . ومن أجل هذا كله تغيرت صور الفن الشعري عند اليونان ولم يتغير موضوعه . فالأبطال والآلهة هم موضوع القصص في الإلياذة والأودسة ، وهم الموضوع الأساسي لغناء المغنين ، وهم الموضوع الأساسي لتمثيل الممثلين أيضاً . ومع ذلك فتغير الصورة له خطر العظم وإن بقي الموضوع ثابتاً مستقراً ، ذلك أن الصورة لم تتغير إلا لأن النفس اليونانية قد تغيرت بحكم ما أحاط بالشعب اليوناني من الظروف . فقد كان القصص اليوناني صورة لحياة الجماعة لا يكاد يظهر فيها من الأفراد إلا شخصية الآلهة والأبطال ، بل لا تظهر فيها شخصية الشاعر نفسه . فلما ارتقت الحضارة وذكت القلوب وقويت شخصية الفرد ، تغيرت صورة الشعر ، فظهر شخص الشاعر أولاً وأصبح الشعر لا يضاف إلى شاعر مجهول يسمى هوميروس مهما يكن موضوعه ، وإنما يضاف إلى شعراء معروفين يراهم الناس ويتحدثون إليهم ويتحدثون عنهم ، وأصبح الشعر لا يصور الآلهة والأبطال الممتازين وحدهم ، وإنما يصور شخصية الشاعر نفسه ، ويصور معها شخصية كثير من الأفراد ، وما يجدون من لذة وألم ومن حب وبغض ومن عاطفة وشعور بوجه عام ، ثم أصبح الشعر لا ينشد إنشاداً يسيراً تسنده بين حين وحين نغمات ساذجة توقع على أداة ساذجة من أدوات الموسيقى ، وإنما ينشد إنشاداً معقداً يتشكل فيه الصوت بالأشكال المختلفة التي يقتضيتها الغناء ، وتسنده وترج منه أحياناً أدوات موسيقية كثيرة مختلفة ، ويسنده الرقص أيضاً بحيث يوشك أن يشبه الأوبرا في عصرنا الحديث لولا أنه كان يخلو من حركة التمثيل . ثم تتقدم الحضارة ، ويرقى العقل ، وتقوى الشخصية ، وتظفر الشعوب في المدن بحقوقها السياسية ، فتتغير صورة الشعر . وإذا الحوادث التي كانت تقص في الشعر القصصي ، وتغنى في الشعر الغنائي ، قد أصبحت تعرض على النظارة في ملعب التمثيل يجربها الشاعر على أيدي أشخاص يمثلون الأبطال والآلهة أنفسهم . وهذا التمثيل نفسه لا يخلو من الغناء والرقص توقمهما الجوقة وقد يشارك فيهما كليهما أو أحدهما الممثلون . وقد أصبح جمهور النظارة ذا شأن خطير ، فهو يشارك في حفلات التمثيل لا بشهود التمثيل فحسب ، ولكن كذلك بالقضاء بين المستبقيين من الشعراء الممثلين . وقد كان الشعراء يشاركون بأنفسهم في التمثيل أول الأمر ، ثم نشأت طائفة الممثلين المحترفين ، وجعل الشعراء يكتفون بإنشاء الشعر وإرشاد الممثلين وأعضاء الجوقة .

من أبطال الأساطير اليونانية

كذلك كانت الحال في القرن الخامس قبل المسيح حين عرض الشعراء الثلاثة الممتازون : إيسكولوس Eschyle وسوفوكل Sophocle وأوريبيد Euripide لحياة الأبطال والآلهة فعرضوها في الملاعب على النظارة من الإثنيين . وكان من نتيجة هذا كله أن هؤلاء الشعراء وغيرهم من الشعراء الممثلين كانوا يرون من الطبيعي والمألوف أن يعرضوا للموضوعات التي سبقهم إليها القصاص والمغنون ، فينشئوا فيها قصصهم التمثيلي ، بل كان من الطبيعي والمألوف أن يعرض المتأخر منهم لما عرض له المتقدم ، لا يجدون في ذلك حرجا ، بل يجدون فيه سبيلا إلى الإجابة والإيقان . فقصّة أوديب مثلا قد عرض لها إيسكولوس ثم عرض لها بعده سوفوكل ، ثم عرض لها بعدها أوريبيد ، ثم عرض لها شعراء آخرون من اليونان لم يجد أحد في ذلك حرجا . وهذه السنة التي سنها اليونان قد انتقلت منهم إلى غيرهم من الأمم ؛ فالرومان في العصر القديم حين حاولوا التمثيل اتخذوا أكثر الموضوعات لقصصهم من التمثيل اليوناني نفسه . فقصّة أوديب مثلا عرض لها منهم غير شاعر . وامتازت قصة سينيك Sénèque من هذه القصص التي وضعها الشعراء اللاتينيون . وجرى الأمر على ذلك بعد النهضة الأوربية في العصر الحديث ، فاستعار شعراء التمثيل من الإنجليز والألمان والإيطاليين والفرنسيين خاصة موضوعات شعرهم التمثيلي من تمثيل اليونان والرومان . وقد وضع الشاعر الإنجليزي دريدن في القرن السابع عشر قصة أوديب ، كما وضع الشاعر الإيطالي ألفييري في القرن الثامن عشر قصة أوديب أيضا . أما الفرنسيون فقد فتن شعراؤهم وكتابهم بقصة أوديب منذ أواخر القرن السادس عشر إلى الآن . ولست أحصى شعراءهم الذين عرضوا لهذه القصة ، وإنما أذكر أن كورني قد وضع قصة تمثيلية لأوديب فتن بها معاصروه ، وأن فولتير قد وضع في أول القرن الثامن عشر قصة لأوديب كثر حولها الحديث والنقد ، وأن شاعرين فرنسيين هما دي سيس وشنييه وضعوا قصتين لأوديب في آخر القرن الثامن عشر وأول القرن التاسع عشر . أما في هذا القرن العشرين فقد عني بأوديب الكاتب الفرنسي العظيم أندريه جيد في القصة التي تترجمها في هذا السفر ، كما عني به الكاتب الشاعر المعروف جان كوكتو في قصته المشهورة « أداة الجحيم » . فأنت ترى أن السنة اليونانية التي أتاحت للشعراء ألا ينفروا مما سبقوا إليه قد أصبحت سنة أدبية إنسانية شائعة على اختلاف العصور . وأنت ترى كذلك

من أبطال الاساطير اليونانية

أن قصة أوديب وحدها قد شغلت شعراء كثيرين في الأمم المختلفة على اختلاف العصور، وما زالت تشغل الشعراء والكتاب إلى الآن . وأكبر الظن أنها ستشغلهم دائماً .

٣

ولا أكاد أذكر من القصص اليونانية القديمة الذى شغل به المحدثون شيئاً تجاوز القرن السابع عشر والثامن عشر إلا قصة « أيجينى فى توريس » *Iphigénie en Tauride* التى عنى بها جوت ، وقصصاً قليلة أخرى طغت فى القرن العشرين ، أعظمها خطراً قصة « أوديب » هذه وقصة « الكتر » *Electre* و « أمفريون » وقد جددها جان چيروود ، وقصة أنتيجون وقد جددها جان كوكتو بين الحربين ثم جددها جان أنوى فى هذه الأعوام الأخيرة . وهناك قصص تمثيلية معاصرة جدت أو حاولت أن تجدد بعض القصص التمثيلية اليونانية القديمة ، ولكنها لم تبلغ الملعب أو لم تظفر فيه بنفوز باهر ونجح عظيم .

ولعل المحدثين المعاصرين يؤثرون أن يشهدوا القصص اليونانية يعرض عليهم كما تركه أصحابه مع قليل أو كثير من التغيير ، إلا أن يوجد الكاتب الممتاز الذى يستطيع أن يدل بالقصة اليونانية على أكثر مما وصل إليه الشاعر اليونانى القديم ، أو أن يعرضها فى شكل أشد ملاءمة لروح العصر الحديث .

وهذا هو الذى فعله چيروود حين اتخذ الكتر رمزاً لا للانتقام وحده كما فعل القدماء بل للعدل أيضاً . للعدل الذى يجب أن تبلعه الإنسانية وأن تضحي فيه بكل شئ مهما تكن التضحية قاسية ومهما تكن الضحية غالية ، والذى لا يحفل بانثلال العروش وانهيار النظم وإزهاق النفوس وسفك الدماء وصب الدمار على المدن ، بل يرى فى ذلك كله إيذاناً بطلوع فجر جديد . وكما فعل جان پول سارتر فى قصة « الذباب » حين أراد أن يجدد مأساة الكتر فجعل اخاها هو البطل . ولم يكتف بفكرة الانتقام من الأم التى خانت زوجها وقتلته ولا بفكرة العدل التى قصد إليها ووقف عندها چيروود ، ولكنه عنى بالحريية الإنسانية التى وقفت أورست موقف الثائر على ذوس Zeus المعارض له ، والتى تقف الإنسان الحديث موقف الثائر على كل شئ المزدرى لكل شئ إلا حريته التى

من أبطال الأساطير اليونانية

تجعله إنسانا يوجد ليعمل مايشاء أن يعمل وليقول مايشاء أن يقول ، غير حافل
الإبنفسه ولاواقف إلا عند نفسه .

إلى شئ من هذا التجديد الأساسى الخطير قصد أنذريه جيد حين وضع
قصته التمثيلية « أوديب » مجددا هذه القصة كما تركها سوفوكل غير واقف
عند ما انتهى إليه سوفوكل ولا حافل بما بلغه كورنى أو فولتير أو غيرها
من الشعراء والكتاب المحدثين . وقد يحسن أن نتبين قبل كل شئ الإم
أراد سوفوكل حين وضع قصته هذه التى صور فيها مأساة أوديب؟ وقد
أضاعت الأيام ما ترك إسكولوس وأوريبيد وغيرها من الشعراء
القدماء حول هذا الموضوع بحيث أصبحت قصة سوفوكل هى النموذج القديم
الوحيد الذى ألهم المحدثين من الأوريبيين . وواضح أن سوفوكل إنما قصد
فى هذه القصة كما قصد فى أكثر قصصه الأخرى إلى ما يصور لنا صرامة القضاء
من جهة وحرية الإنسان من جهة أخرى ، وإلى أن يلائم بين هذين الضدين
المختصمين على نحو ما . فالقضاء صارم قاس بالقياس إلى أوديب وإلى أبويه فى هذه
القصة ، وهو صارم قاس بالقياس إلى أبنائه فى قصة أخرى هى قصة أنتيجون .
القضاء صارم قاس لأنه قد كتب فى غير حكمة بينة للإنسان على لا يوس أن
يموت مقتولا بيد ابنه ، وكتب على چوكاست أن تقتل نفسها بعد أن تتورط فى
إنهما ذاك البشع الشنيع ، وكتب على أوديب أن يكون قاتلا لأبيه متروجا لأمه
مسببا لموتها فاقئا عينيه بيده . ومن البين أن أحدا من هؤلاء الأبطال لم يكن
حاضرا حين كتب القضاء ما كتب ، ولم يقترف قبل وجوده إنما يغرى به القضاء
ويسلط عليه قسوة الأقدار . فهناك إذن علة خفية لا يدركها الإنسان تدفع
القضاء إلى أن يدير أمر الناس والآلهة كما يشاء . ومن يدرى ! لعل هذه العلة
الخفية لا وجود لها ، ولعل القضاء يعضى كما يريد لا يخضع لقانون ولكنه على
كل حال صارم قاس بالقياس إلى الآلهة والناس جميعا . غير أن الإنسان ليس خاضعا
خضوعا كاملا شاملا مستسلما لهذا القضاء ، وإنما هو مستمتع بشئ من الحرية
قد يكون قليلا وقد يكون ضئيل الأثر وقد لا يكون له أثر ما ، ولكنه موجود
على كل حال . وآية ذلك أولا أن الإنسان يريد أن يعرف ما أضمر له القضاء
يعمل فى ذلك عقله ويستنبئ عن ذلك وحى الآلهة ؛ فهو إذن لا يخضع لأحكام
القضاء غير عالم بها أو غير مفترض لوجودها كما يخضع لها الحيوان وكما تخضع لها

من أبطال الاساطير اليونانية

الكائنات الأخرى التي تأتلف منها الطبيعة . وليس قليلا أن يتلقى الإنسان ما كتب له من خير وما قضى عليه من شر وهو عالم به وعالم بالمصدر الذي يسوقه إليه أو يسلمه عليه .

وهناك آية ثانية على حرية الإنسان أمام القضاء ؛ فهو لا يطمئن إلى العلم بما كتبت الأقدار عليه ، وإنما يحاول أن يخلص مما قضى عليه من الشر . وليس المهم أن ينجح أو يخفق في هذه المحاولة وإنما المهم أن يحاول . فلايوس وچوكاست يعلمان أن ابنهما سيقتل أباه ويتزوج أمه ، فيحاولان التخلص من هذا الشر بقتل الصبي قبل أن ينمو ويقترف هذه الآثام ، ولا عليهما بعد ذلك أن يفلت الصبي مما دبر له من الموت . وأوديب يعلم بما دبر القضاء له ، فيفر من قصر الملك في كورنت محاولاً أن يتجنب ، ولا عليه بعد ذلك أن يقتل لايوس ، فلو قد عرف ، أنه أبوه لما قتله ، ولا عليه أن يتزوج چوكاست فلو قد عرف أنها أمه لما اقترن بها . وهناك آية أخرى على حرية الإنسان أمام القضاء ، وهي أعظم من هاتين الآيتين خطراً وهي التي يصورها لنا سوفوكل في قصة « أوديب ملكا » ، ولكنه يصورها بصوراً أعظم روعة وأكثر جلاء في قصته الأخرى « أوديب في كولونا » ، وهي أن الإنسان حين يعجز عن رد القضاء لا يرى نفسه منهزماً ولا يرى نفسه مسئولاً عما تورط فيه من الإثم . فهو يؤمن بأن التبعة يجب أن تكون نتيجة للحرية وأن يكون حظ الإنسان من هذه التبعة ملائماً لحظه من الحرية ، فأوديب تدفعه الغريزة الإنسانية الأولى كما تدفعه التقاليد الموروثة إلى أن يعاقب نفسه حين يستكشف الإثم الواوع الذي تورط فيه ، ولكنه بعد شيء من التفكير يستطيع أن يثبت للقضاء . أن يقف من الآلهة موقف المدافع عن نفسه المحتج لها ، لأنه لم يرد قتل أبيه ، ولم يقتله وهو يعلم أنه أبوه ، ولم يرد الزواج من أمه ولم يتزوج منها وهو يعلم أنها أمه . فإن كان في هذا كله إثم فليس هو المسئول عن هذا الإثم ، وإنما يسأل عنه القضاء الذي دبره والآلهة الذين ضلوا أوديب حتى تورط فيه على كثرة ما حاول تجنبه والتخلص منه . هو إذن بريء أمام نفسه ، ولا عليه أن يراه الناس بريئاً أو أن يتهموه ويحكموا عليه . على أن أوديب لا يكتفى بذلك وإنما يريد أن يقنع القضاء والآلهة أنفسهم ببراءته ، وهو يبلغ من ذلك ما يريد فقد رضى الآلهة عنه آخر الأمر فأووه إلى هذه الضاحية من ضواحي أثينا ، وألقوا عليه المسكينة ، وأشاعوا في نفسه الطمأنينة والأمن ، وجعلوا جثته مصدر بركة للبلد

الذى تدفن فيه . وهم قد عاقبوا مدينة ثيبا فأثاروا فيها الفتنة بين الأخوين الملكين ، وحرمرها هذه البركة المتصلة بشخص أوديب حين قضاوا ان يموت غريباً وأن يدفن في بلد غريب .

وإذن فقد انتهت حرية الإنسان إلى شيء من الفوز . لم تستطع أن تجنب صاحبها المحنة ولا أن تنقذه من الشر في هذه الحياة ، ولكنها قد صفتت نفسه وطهرت قلبه واستخلصته من الآثام كما يستخلص المعدن النقي مما يحيط به من الخبث . فليست هذه المحنة إذن إلا تجربة لحرية الإنسان ، ووسيلة إلى تصفية نفسه وتنقية جوهره إن استطاع أن يثبت للاسلام وينفذ من الخطوب .

إلى هذا كله أراد سوفوكل حين كتب قصته اللتين صور في إحداهما محنة أوديب ملكا ، وفي أخراهما نجاة أوديب منفيًا بألسا طريذاً . ويجب أن نعرف بأن الذين أرادوا أن يقدوا سوفوكل لم يبلغوا مما أرادوا شيئاً ذا خطر ، لا أستثنى منهم إلا المعاصرين من الكتّاب الفرّسيين .

فالكاتب الشاعر الفيلسوف سينيك لم يضيف إلى ما ابتكر سوفوكل شيئاً ، ولعله أضاع منه أشياء . وإذا كان لقصته شيء من جمال فأكبر الظن أنه إنما يأتيها من روعة الفصاحة اللاتينية ومن بعض الخواطر الفلسفية العابرة .

أما كورنى فقد كان مفتوناً بقصته ، ويظهر أن معاصريه منحوا قصته هذه غير قليل من الرضا والإعجاب ؛ ولكن كورنى فيما أعتقد قد أفسد قصة أوديب إفساداً عظيماً . رأى أن يلائم بين القصة وبين ذوق البيئة التي كان يكتب لها ، وقد لاحظ أن تلك البيئة لم تكن تتصور قصة تمثيلية تخلو من الحب ومن الحب الذى يكون له فى المأساة نفسها أثر خطير . وليس فى قصة سوفوكل حب أو شيء يشبه الحب ، فاضطر كورنى إلى أن يحدث حباً ذا خطر ، واضطر من أجل ذلك إلى أن ينشئ لثيسوس بنتا تكبر أوديب سنّاً ، وأن ينشئ بين هذه الفتاة وبين ثيسوس Thésée ملك أثينا حباً ، وأن ينشئ بين هذه الفتاة وبين أوديب خصومة حول هذا الحب من جهة وحول العرش من جهة أخرى . فلم تكن الفتاة تعرف أن أوديب أخوها ، وهى من أجل ذلك كانت تراه غاصباً لعرش أبيها . ولم يكن أوديب يعرف أن الفتاة أخته فكان يؤثر أن يزوج ملك أثينا من إحدى ابنتيه . وكانت چوكاست حائرة بين بناتها الثلاث وبين زوجها . والغريب أن كل هذه الخصومات حول الحب والغيرة كانت تشغل الملك والملكة والحاشية والقصر

كله في نفس الوقت الذي كان الوباء يعصف فيه بالمدينة عصفاً شديداً ، ولا نشغل بالقصة نفسها إلا حين توشك الفصول أن تنتهي ، هنالك تثار العقدة ويعلم الملك ومن حوله أن الآلهة غضاب ، وأن هناك مجرماً يجب أن ينزل به العقاب ، ثم يستبين للملك أنه هو المجرم فلا يفقد صوابه ولا يأخذ الهول ، وإنما يتحدث إلى أخته في حبها لملك أثينا وفي زواجها من هذا الملك ، ثم يعصف الندم بنفسه آخر الأمر حين تموت چوكاست فينقأ عينيه . وقد لاحظ كورنى كذلك أن البيئة التي كان يكتب لها كانت من الترف ورقة الشعور بحيث كان يسوءها أن يظهر أمامها أوديب دأى الوجه بعد أن فقأ عينيه ، فلم يظهر الملك أمام النظارة وإنما قص آخرته وآخرة الملكة عليهم في شعر قد يكون جميلاتاً ، ولكنه لا يبنى عن الصورة المائلة أمام النظارة شيئاً .

وقصة كورنى بعد ذلك لا تضيف فكرة جديدة إلى القصة اليونانية . ولست أدري أمن الحق أن تسمى أوديب ، أم من الحق أن تسمى درسيه وهو أسم الفتاة التي اخترعها كورنى والتي تدور عليها القصة وعلى حبها أكثر مما تدور على أوديب وعلى محنته . وقد تقد قولتير قصة سوفوكل نقداً مفصلاً مسرف التفاصيل . قاسه بمقياس العصر الذي كان يعيش فيه ، فأظهر القصة اليونانية منحلّة متهاكّة لا قوام لها من منطق ولا من دقة ، ولا تكاد تظفر بحظ من إتقان . ثم عطف على قصة كورنى ، فلم يعنفها من النقد اللاذع الشديد . ثم أذاع قصته هو ، فإذا هي شر من قصة كورنى ، لم تضاف إلى القصة اليونانية جديداً ، ولم تظفر من الجمل اللفظي بما ظفرت به قصة كورنى العظيم . ويكفي أن نلاحظ أن قولتير قد وقع في نفس التخليط الذي وقع فيه كورنى ، أراد أن ينشئ حباً في هذه المأساة ؛ لأن البيئة الفرنسية التي كان الأدباء يكتبون لها كانت تريد الحب في التمثيل . أراد أن ينشئ حباً إذن ، فلم يجعل للايوس بنتاً كما فعل كورنى ، ولكنه استكشف لچوكاست عاشقاً قديماً هو فيلوكتيت Philoctète ، وقد عاد فيلوكتيت إلى ثيبا ليعيش قريباً من عشيقته ، ولكنه يعلم أن زوجها قد قتل فيستأنف حبه القديم ثورة جامحة ، إلى آخر هذا العبت الذي لا يزن شيئاً بالمقياس إلى جد الشاعر اليونانى العظيم . على أن من الحق أن نعتذر عن قولتير ؛ فقد كان في التاسعة عشرة من عمره حين أنشأ هذه القصة . والشئ المحقق أن الشاعرين الفرنسيين قد عنيا بالبيئة أكثر مما عنيا بالموضوع ، فأرضيا قوما كانوا يحبون

أن يلهوا ، ويكرهون أن يشقوا على أنفسهم بالتأمل والتفكير فضلاً عن أن يشقوا على أنفسهم بالنظر إلى المناظر التي تؤدي شعور الغايات المترقات . ولأدع ما حاول الشعراء والكتاب بعد ثولتير من تجديد قصة أوديب لأصل إلى هذه المحاولة الأخيرة التي أقدم عليها أندريه جيد وچان كوكتو بين الحريين . وهما قد أقدما على هذه المحاولة في وقت واحد ، لم يسبق أحدهما صاحبه ، ولم يعلم أحدهما بمحاولة صاحبه إلا بعد أن أظهر كل منهما قصته . والفرق العظيم جداً بين القصتين . فأمّا چان كوكتو فيسرف في التجديد والابتكار إسرافاً شديداً لا يدعوه إليه تعمق الفكرة التي تدور القصة حولها ، وهي فكرة الصراع بين سلطان القضاء وحرية الإنسان ، وإنما يدعوه إليه الفن نفسه ، الفن الخالص الذي يروع النظارة ويهرم ويحرص على أن يسحر أعينهم وآذانهم وعقولهم أكثر مما يحرص على أن يدعوهم إلى التأمل والتعمق والتفكير . فچان كوكتو ليس متهاكاً على الجد ولا معنفاً فيه ، ولعله يبغض التقيد بأصول الفن المقررة ، فأحرى أن يبغض التقيد بقصة الشاعر اليوناني القديم . وهو من أجل ذلك يتكرر بطلاً جديداً هو أوديب ، ويحيطه بظروف توشك ألا تستبق من اليونانية إلا الأسماء دون الحقائق ، وهو يعقد قصته تعقيداً ويخالف فيها بين المناظر والفصول ، لا يتقيد بوحدة في الزمان ولا في المكان ولا في الحركة ، وإنما يكتب في بوحدة الموضوع . فقصة تبدأ منذ قتل لايوس ، وتنتهي بعد أن يفقأ أوديب عينيه . وإذن فهي تستغرق نحو عشرين سنة . تبدأ القصة حين تعرف المدينة مصرع الملك من جهة وحين يمتحنها أبو الهول بلعزّه من جهة أخرى . ونحن نرى في الفصل الأول ظل الملك القليل يظهر لبعض الجنديريداً يرى الملكة والكاهن ليحذرهما من خطر عظيم . ونحن نرى الملكة والكاهن يصعدان إلى حيث كان يظهر ظل الملك القليل ، فنرى ملكة شابّة حلوة الدعابة خفيفة الروح ، خائفة من ظل زوجها ، خائفة من الأحداث التي يمكن أن تلم بها ، محبة مع هذا كله للحياة ولداتها ، لا تكره أن تداعب الكاهن الذي يداعبها أيضاً ، ولا تكره أن تلاعب الجندي الشاب الذي رأى ظل الملك القليل ، وتظهر ميلاً شديداً إليه .

ونحن نرى في فصل آخر ما يكون من الصراع بين أوديب الفتى المغامر وبين أبي الهول . ثم ما يكون من انتصار الفتى . ونحن نرى في فصل ثالث زفاف

جوكاست إلى الملك الشاب ونشهد أول الشر؛ فالكاهن محقق على أوديب مشفق منه، وليس كريون أقل منه حنقا ولا إشفاقاً. ثم نرى نحن آخر الأمر ظهور الحقيقة ومصراع جوكاست، ونرى أوديب وقد فقأ عينيه ونفى نفسه من الأرض وهم أن يخرج من القصر تقوده ابنته أنتيجون، وإذا ظل أمه وزوجه جوكاست يظهر، فيراه أوديب الضرير ولا يراه المبصرون من حوله، ويتحدث فيسمعه أوديب ولا يسمعه الآخرون من حوله، وإذا جوكاست تنبأ أنها بآن الموت قد طهرها من الزوجية الآثمة ولم يبق لها إلا الأمومة البرة، وهي قد أقبلت لتقود ابنها إلى منفاه وتعيّنه على احتمال الغربة.

فالقصة كما ترى رائعة بما فيها من اختلاف المناظر وبراعة الاختراع وحسن التحدث إلى الحس والشعور. ويظهر أن هذا كله يرضى الجمهور الضخم من النظارة الباريسيين. فأما التحدث إلى العقل وأما مواجهة المشكلات العليا وأما الصراع بين الدين والحرية فأشياء لم يكن يحفل بها جان كوكتو، ولم يكذب يحفل بغيرها أندريه جيد؛ فأندريه جيد متبع لسوفوكل في مجرى قصته لا يخرج عن الخطة التي رسمها الشاعر القديم منذ خمسة وعشرين قرناً. ولكن أوديب الذي ينشئه أندريه جيد رجل قد تم نضجه الفلسفي بأرق معاني هذه الكلمة في القرن العشرين. يظهر في أول القصة مستجمعا شخصيته كلها، مستكملا قوته كلها، متحديا للناس متحديا للآلهة، لا يؤمن إلا بنفسه، يعلن إلى النظارة أنه رجل سعيد، قد عمر أربعين سنة وملك عشرين عاماً، واكتسب سعادته اكتساباً لم يرثها عن أحد. ويوشك هذا الاعتداد بالنفس أن يدفعه إلى الغرور، وهو من أجل ذلك يخادع نفسه ويزعم لها غير مخلص أن الآلهة قد أعانوه، لا يريد بهذا الخداع إلا أن يتجنب الغرور الذي كثيراً ما ورط الناس في الشقاء.

فالفكرة الأساسية في قصة أندريه جيد هي اعتداد الإنسان بنفسه وثقته بحريته واعتداده على قدرته التي تمكنه من اقتحام المضاعب وتذليل العقاب. وهذا الاعتداد بالنفس يسوء الناس جميعاً؛ فالجوقة التي تمثل الشعب ضيقة بهذا الغرور مشفقة منه على مصير المدينة، ويدفعها إلى الإشفاق والخوف هذا الوباء الذي يصب على المدينة بلاء عظيماً. وقد أخذ الشعب الذي كان مفتوناً بالملك يتطير به ويهم في أن يكيد له بعض الكيد ليصرف إليه وحده غضب

الآلهة من دون المدينة . والكاهن ساخط على الملك لأنه لا يخلص دينه للإله بل لا يؤمن بالإله . وأبناء أوديب قد اختلفت أهواؤهم : فأما الشبان فقد تأزرا بأبيهما ، فهما لا يؤمنان بشيء ولا يرجوان لشيء وقاراً ، ولا يكرهان أن يصبوا إلى أختيهما وأن يتحدثا إليهما كما يتحدثنان فيما بينهما بهذه الصبوة الآثمة . أما أنتيجون وچوكاست فتأترتان بالكاهن إلى أبعد حد ، حتى إن الفتاة لتوشك أن تهب نفسها للإله . وأما كريون فناعم بالحياة في هذا القصر لا يحب أحداً ولا يكره أحداً ، وإنما يحب نفسه ويحب الحياة ويستمتع بما يتاح له من لذاتها ، ويحافظ على التقاليد ما وسعته المحافظة . وعقدة القصة كلها هي الاختلاف بين أوديب الذي يعتد بنفسه حتى يبلغ الغرور وحتى يجحد الآلهة ، والكاهن الذي يريد أن يبسط سلطان الدين وأن يسيطر من طريق هذا السلطان على كل شيء وعلى كل إنسان وعلى نفس الملك خاصة . وليس الوباء الذي ألمَّ بالمدينة وليس البحث عن مصدر هذا الوباء وليست استشارة الآلهة لتعرف هذا المصدر وليس استكشاف المجرم الذي قتل أباه وتزوج أمه — ليس هذا كله إلا مظاهر لهذا الصراع بين حرية الإنسان واعتداده بنفسه حتى يبلغ الغرور ، وبين سلطان الإله وتفوقه على غرور الإنسان .

فإذا تبينت الحقيقة وعرف أوديب أن سعادته لم تكن إلا غروراً ، وأن انتصاره على أبي الهول لم يكن إلا سرايا ، وأن ملكه الذي أسسه ونعم به لم يكن إلا امتحاناً — إذا عرف أوديب هذا كله ورأى امرأته وأمّه قد قتلت نفسها ورأى نفسه قد فقأ عينيه بيديه ، ظن الكاهن تيرزياس أن الإله قد انتصر على غرور الإنسان ، وأن أوديب قد ثاب إلى رشده ، وأذعن لسلطان الدين . ولكن أوديب لم يخرج عن كبريائه ، ولم يستسلم للمحنة ، ولم يعترف بالهزيمة ، وإنما ثبت للخطب ، بل هو لم يفقأ عينيه إلا تحدياً لنفسه وللناس وللألم ، ومحاولاً لبناء مجد جديد من طراز آخر معنوي غير هذا المجد الزائل الذي كسبه حين قهر أبا الهول وأسس الملك . وهو حين ينفي نفسه من الأرض لا يفارق المدينة منهزماً ولا مخذولاً ، وإنما يفارقها يائساً . لم يقهر اليأس نفسه ، وإنما رفعها فوق الناس وفوق أعراض الحياة . وهو ينصرف ساخراً من الشعب الذي أحبه ثم كرهه ثم أخذ يتملقه حين عرف أن بركة الآلهة متصلة بشخصه ، وينصرف ساخراً من كريون المحافظ الذي يرى الملك كل شيء ، وينصرف ساخراً من ابنه اللذين

لا يفكران في الحياة إلا على أنها وسية إلى المتاع ، وينصرف ساخرًا من الكاهن الذي يعظه ويريد أن يحمله على الندم ؛ فهو لا يرى أنه قد فعل شيئًا يمكن أن يندم عليه .

هذه هي القصة التي وضعها أندريه جيد ، وهي كما ترى قريبة جدًا من القصة اليونانية في موضوعها وفي غايتها ، بعيدة جدًا من القصة في صورتها من ناحية وإن احتفظت بالجوقة وفي إنقائها للتفكير وتجنبها للتكلف الشعري الغنائى الذى قد يروق ويعجب ، ولكنه لا يفنى عن التفكير العقلى شيئًا .

ولست أدري أخطئ أم أصيب ، ولكنى أعتقد أن هاتين القصتين : قصة سوفوكل وقصة أندريه جيد هما وحدهما اللتان تشهدان بأن محنة أوديب خليقة حقًا بأن تكون موضوعاً للتفكير الذى يغذو العقل ، والفن الذى يغذو القلب ، وبأن تكون من أجل ذلك صالحة لتفكير الفلاسفة وابتكار الأدباء على مر العصور واختلاف الأجيال .

وقد يكون مما يمتاز به قصة أندريه جيد من القصص الأخرى التي حاولت تجديد القصة اليونانية أنها لم تقف عند قصة أوديب ملكا ولكنها ألمت من قريب جدًا بالقصة الثانية التي وضعها سوفوكل وهي قصة أوديب في كولونا . وكان إلمامها بهذه القصة رائعاً حقًا ، لا أكاد أعرف شيئاً يشبهه في جمال الإيجاز ودقته وكفايته بحيث يستطيع قارئ هذه القصة أن يستوعب أمر أوديب كله في غير مشقة ولا جهد .

فقصة أوديب تنتهى حين تموت جوكاست ويعاقب أوديب نفسه ويعلن أنه سيهاجر من وطنه . وقد رضى كريون عن هذه الهجرة ، وابتهج بها الشعب ، وسكت عنها ابنا أوديب الطامعان في الملك اللذان اتفقا قبل أن يمتحن أبوها على أن يكون الملك دولةً بينهما ، وأزمت أنتيجون أن تصحب أباهما في منفاه ، وقررت إسمين أن تلحق بهما بعد قليل . ولكن الكاهن يعلن فجأة أن الآلهة قد أوحوا إليه أنهم يصلون البركة بشخص أوديب ويكتبونها للأرض التي يدفن فيها بعد موته ، وإذا كل شيء يتغير إلا رأى أوديب ، فكريون يطلب إليه البقاء ملجأً في طلبه ، والشعب يطلب إليه البقاء متملقاً مترضياً ، ولكن أوديب يسخر من إلحاح كريون وتملق الشعب وتوسل الكاهن ، ويمضى إلى منفاه ساخرًا من هؤلاء جميعاً .

وفي هذا الحوار القصير اليسير يوجز أندريه جيد خير ما في القصة اليونانية الثانية بحيث يخرج القارئ من قصة أندريه جيد وقد عرف من أمر أوديب كل شيء : عرف بدء القصة وخاتمها، وعرف مكر الآلهة وغرور أوديب، وعرف المحنة والمقاومة، ثم عرف عفو الآلهة وانتصار الإنسان .

٤

والظاهر أن أندريه جيد قد فكر في قصة أوديب قبل أن يحاول إنشاءها بوقت طويل ؛ فهو معنى بأساطير اليونان يطيل التفكير فيها والحديث عنها، ويلفته إليها بنوع خاص أنها مهما تكثرت فيها الأعاجيب وخوارق العادات ومخالفة المألوف من قوانين الطبيعة تنتهى دائماً إلى شيء من المنطق يردّها إلى العقل وإلى ما يحمل العقل على التروية والتفكير فيما يفسر حياة الإنسان أو يتصل بمصيره أو بموقفه من القضاء .

زراه يكتب في ذلك بعيد انتهاء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٩ . ثم زراه ينشئ قصة أوديب نحو سنة ١٩٣٠ ، فإذا كانت الحرب العالمية الثانية وهاجر إلى إفريقيا الشمالية زراه ينشئ قصته الثانية التي تترجمها مع قصة أوديب وهي قصة ثيسوس . وهو يبنينا في إهداء هذه القصة بأنه كان يفكر في كتابتها منذ زمن طويل . والواقع أنه يتحدث عن ثيسوس وأسطورته في مقاله الذي أشرت إليه آنفاً والذي كتب سنة ١٩١٩ ، فهو إذن يفكر في هذه القصة الثانية قبل أن يكتبها بأكثر من عشرين سنة . والتفكير في هذا البطل الأثيني لا يستقيم عند أندريه جيد كما أنه لا يستقيم عند سوفوكل دون التفكير في أوديب . وحسبك أن تذكر أن أمر أوديب قد انتهى في القصة الثانية من قصتي سوفوكل بالتجاء البطل الممتحن إلى أتيكا والتماسه الأمن والجوار عند الملك الأثيني ؛ فقد كان الشاعر اليوناني إذن يقرن أحد البطلين إلى صاحبه . وكذلك صنع أندريه جيد ، فسترى في آخر قصة ثيسوس حديثاً بين البطلين حين التقيا يدور كله حول مصيرهما . والواقع أن هذين المصيرين يختلفان أشد الاختلاف ، ولكن كلا منهما يدعو على ذلك إلى التفكير في الآخر . فقد أتيح الفوز للبطل الأثيني منذ نشأته الأولى ، وأتيح له على نحو متصل حتى كانت حياته كلها فوزاً لم يعرف فيها الشقاء

إلا قليلاً ، على حين بدأت حياة أوديب شقية مملوءة بالحزن ، ولم يكن ما أتيج له من السعادة إلا غوراً .

على أن آخرة الرجلين تختلف أشد الاختلاف : فأما أعظمهما حظاً من الشقاء وهو أوديب ، فقد مات راضياً عن نفسه وعن الآلهة ، مطمئناً إلى هذه السكينة التي أنزلت على قلبه . وأما أعظمهما حظاً من السعادة وهو ثيسوس فقد أنفق آخر أيامه منفيًا طريداً ، نفته الثورة عن وطنه ، ولم يجد عند الملك الذي استجار به مثل ما وجد عنده أوديب من الثقة والأمن ، وإنما وجد عنده المكر والغدر والموت . فلاغرابة إذن في أن يفكر أندريه جيد كما فكر سوفوكل في الرجلين معاً . ولا غرابة إذن في أن نجمع ترجمة القصتين في سفر واحد ، وإن لم يفعل ذلك أندريه جيد ؛ لأنه قد أنفق عشر سنين بين إنشائه لهاتين القصتين .

على أنى حين تحدثت إليه في الجمع بينهما في سفر واحد رضيت عن ذلك كل الرضا . وقد عرفت منه في باريس أنه أشار على مترجمه الأمريكي بأن يصنع نفس هذا الصنيع ؛ لأن القصتين تصدران عن تفكير واحد وعن موتف واحد أمام مشكلات الحياة . ومع ذلك فبين القصتين اختلاف عظيم في الصورة الفنية : إحداها تمثيلية كتبت للمسرح ، على حين أن الثانية نوع من المذكرات يقص فيها البطل الأثيني علينا حياته التي ملأتها المغامرة في ألوان من الدعاية الحلوة أحياناً والحب المر أحياناً أخرى .

ولا يشك قارىء القصتين في أن أولاهما قد كتبت حين كان أندريه جيد قوياً سعيداً موفوراً مستكلاً شخصيته كأحسن ما يستكل الكاتب شخصيته ، كان في الستين من عمره ، أو لم يكن قد جاوز الستين إلا قليلاً ، كان سعيداً بين أهله وأصدقائه ، راضياً عن نفسه وراضياً حتى عن مكر الناس به وكيدهم له وانتقاض بعضهم عليه . أما القصة الثانية فقد كتبها بعد أن جاوز السبعين ، بعد أن فقد زوجه وكثيراً من أصدقائه وبعد أن خضع لألوان من الأزمات النفسية ، وبعد أن ذاق وطنه الهزيمة ، وذاقها هو أشد ما يكون ذوقها مرارة ، وكتبها منفيًا عن وطنه لا يعرف متى يعود إليه ، بل لا يعرف أيتاح له أن يعود إليه . فهو مجاهد معاند متحد للأحداث والخطوب حين يكتب قصة أوديب ، وهو هادئ مطمئن حزين باسم مع ذلك للأحداث والخطوب ساخر منها ، مؤمن بنفسه واثق بوطنه ذائق حلاوة الصداقة حين يكتب قصة ثيسوس .

ولذلك نرى أوديب يفرض نفسه على الأيام ويتحدى الآلهة ويعاند القضاء، ويخرج من المحنة ظافراً يريد أن ينسى الماضي وألا يفكر إلا في المستقبل، ونرى ثيسوس قانعاً راضياً مطمئناً لا يفكر إلا في الماضي يستحضر منه اليسير والخطير، ويجد اللذة في استحضار ما يستحضر يتحدث به إلينا أو إلى نفسه، مستمتعاً بهذا الحديث قبل أن نستمتع به نحن، لا يفكر في المستقبل ولا يريد أن يفكر فيه؛ فهو لا ينتظر مستقبلاً لأن حياته قد أشرفت على غايتها. وأنت تجد هذا الحزن المطمئن في الأساطير الأولى من القصة حين ينبئك بأنه كان يريد أن يقص حياته ليجد فيها ابنه موعظة وعبرة وتعلماً، ولكن ابنه قد مات، وهو يقص حياته مع ذلك؛ لمن يقصها؟ لنفسه أولاً، ولمن شاء أن يقرأها من الناس بعد ذلك. فهو قد تقدمت به السن، وسبقه أكثر أصدقائه وأحبائه إلى الموت، فأصبح عسير نفسه، لا يستطيع إن أراد أن يسرّي عنها إلا أن يقص عليها ما كان له في صباه وشبابه وكهولته من الأحداث، وما مر به من الخطوب وما تعرّض له من المغامرات، يحيا في وقت قصير حياته الطويلة، ويجدد بالذكرى ما اختلف على نفسه من لذة وألم، ومن أمن وخوف، ومن أمل ويأس.

وهو ينتهي آخر الأمر بالموازنة بين حياته وحياته صديقه أوديب، فيرى بعد التفكير الطويل أنه كان أسعد من صديقه حياة وأحسن حظاً؛ لأن أوديب قد انتهى إلى الزهد في الحياة والنفور منها والفرع إلى هذا العالم الداخلى يجد فيه الأمن والرضا على حين لقي هو الحياة كما عرضت على الأحياء، ولعب بالأوراق التي أتاح القضاء للناس أن يلعبوا بها. يئس أوديب من الناس واستيقن آخر الأمر أنه لن يجد عندهم خيراً ولن يقدم إليهم خيراً، ووثق هو بالناس واستيقن آخر الأمر أن الحياة النافعة القيمة هي التي لا تنتهي إلى الجذب، وإنما تنتهي وقد تركت من ورائها آثاراً يدوم انتفاع الناس بها وذكورهم لها وثناؤهم على صاحبها. وقد امتازت هذه القصة بما سترى فيها من هذه الدعاية الحلوة والسخرية المهادنة؛ فالبطل الأثيني يعرف الناس كما ينبغي أن يعرفوا: يعرف قوتهم ويعرف ضعفهم، ويعرف أن هذه القوة كثيراً ما تقوم على الضعف نفسه. قيل له إنه ابن الملك وتحدث الناس بأنه ابن إله البحر، فهو يعتز بهذين النسيب: يعتز بنسبه إلى أبيه ليمك أثينا، ويعتز بنسبه إلى الآلهة ليمك قلوب الناس ويسحر عقولهم. وهو فيما بينه وبين نفسه يكاد يقطع بأنه ليس ابن هذا ولا ذلك، وبأن أياه غير

معروف ؛ فقد يحدثنا بلوتارك بأن كثيراً من هؤلاء الأبطال كانوا يولدون لغير أب معروف فينتسبون إلى الآلهة ، ولا ينكر الناس من نسبهم شيئاً لحسن بلائهم ولما يحققون من عظام الأمور .

ويحدثنا ثيسوس بأنه قتل رجلاً كان يظن به السوء وقطع الطريق ، ثم تبين بعد ذلك أنه كان رجلاً خيراً نفاعاً للناس ، فكاد يندم على قتله ؛ ولكن الشعب حين عرف أنه هو قاتله ، لم يتردد في أن يقرر أنه كان مجرماً أثمياً . وكذلك تدعن الشعوب للموكها وتسبق إلى التماس المعاذير لهم حين يخطئون .

وما أكثر ما نرى في هذه القصة أخلاق أندريه جيد نفسه ، فأبغض شيء إلى ثيسوس أن يقيد نفسه بما يمنعه من العمل ومن التقدم إلى أمام ؛ فهو يحب ولكن بشرط الا يمسكه الحب عند خلية بعينها ، وهو يصادق ولكن بشرط ألا تقفه الصداقة عن أن يمضى لما يزيد ، وهو من أجل ذلك يتخلص من أريان Ariane بعد أن نجته من اللابيرات ويؤثر عليها أختها ، كما أنه لا يحفل بمشورة صديقه بيرتيوس ولا يقف عند رأيه ، وإنما يمضى لما أراد غير حافل بفقدان الصديق الذي أوشك أن يعوقه عما يرى فيه خيراً .

كل شيء في هذه القصة يصور حرص الملك على أن يحقق نفسه ويعتمد عليها ، ولا يعتمد إلا عليها ، ينفع الناس ولكن لا يعنيه أن يرضى الناس عنه أو يسخطوا ، بل هو لا يكره أن ينفعهم على رغمهم . وإذا كانت قصة أوديب تصور الشخصية ، القوية المجاهدة المعاندة التي لا تؤمن بشيء كما تؤمن بالحرية ، ولا تحرص على شيء كما تحرص على الحرية ، ولا تعرف الهزيمة ولا تدعن للخطوب ، فقصة ثيسوس تصور الشخصية القوية التي جاهدت وعاندت وانتصرت على الأحداث والمخطوب حتى إذا بلغت آخر الشوط نظرت إلى وراء بعد أن لم تكن تنظر إلا إلى أمام ، فرضيت عن نفسها وحمدت بلاءها ، وانتظرت الموت آمنة مطمئنة .

والقصتان تنتهيان إلى غاية واحدة ، ولكنها في الوقت نفسه مختلفة : فقد مات أوديب راضياً ومات ثيسيتوس راضياً أيضاً ، ولكن أحدهما وجد الرضا في العالم الداخلى الفلسفى ، على حين وجد الآخر هذا الرضا في العالم الخارجى الإنسانى . وما أعظم الفرق بين رضا مصدره اليأس من الناس ورضا مصدره الثقة بالناس !